

لُقَطُ الْعِلْمِ

بينما كان اعضاء مجعنا العالمي ورئيسه وقوفا يوماً في بهو دار المجمع يهتمون بتفريغ صندوق جاءهم من باريز فيه اجزاء دائرة المعارف الفرنسية الكبرى اذ حانت مني النفاثة الى القراطيس المتناثرة على الارض . وكانت دست في الصندوق حول مجلدات المكتب تمنع نقلها واضطرابها . فرأيت بين تلك القراطيس رسالة مطبوعة صغيرة الحجم لا تتجاوز ورقاتها العشر . وهي مطبوعة على نفسها طبعاً غير منتظم . ويعلو ظاهرها لطخ من طين وحبر بحيث نذب عنها العين وتشتت النفس . وكان اسم الرسالة مكتوباً عليها باللغة الفرنسية وانا يومئذ اسائل عن مصنف في هذه اللغة تكسبني ترجمته مراناً عليها . ويكون لي منه موضوع علمي يصح ان ينشر في مجلة المجمع ويهدي الي قرائها . فهفا فليبي في إثر هذه الرسالة . واحببت الوقوف على منزلها . وباطن امرها . وقلت في نفسي لعلها الضالة المنشودة . او احدى لُقَطِ الْعِلْمِ المحمودة . فالتقطتها من تحت الاقدام . ومسحت عنها الاذى والرعام . واذا عنوانها ما ترجمته :

«البوذية والبرهمية . ثلاث رسائل صغيرة مترجمة من اللغة الكبودية الى اللغة الفرنسية»
اما مترجم هذه الرسالة فهو ادبار ليكلير (Adhémar Leclère) وقد اثنتمها بمقدمة كتبها في مدينة (الآنسون) احدى مدن ولاية نورمانديا الفرنسية (بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٩١١) واستعملها بقوله :
(أهدي الي التراء الفرنسيين ثلاث رسائل صغيرة ظفرت بها أثناء وجودي في كبوديا فترجمتها الى اللغة الافرنسية منذ عشرين سنة لتكون بمثابة تمرين لي على إتقان اللغة الكبودية ثم منذ بضعة اسابيع عثرت على تسويدها بين اوراقى فاعدت قراءتها وتبين لي ان نشرها بين اهل بلادتي مفيد لهم) قال (وان اثنتين من تلك الرسائل مترجمتان الى اللغة الكبودية عن أصل سنسكرتي بوزي اما الرسالة الثالثة فترجمة اليها عن اصل سنسكرتي برهمي . وكلها تبحث في موضوع واحد . وأراني مصيباً اذا نشرتها على جمهور القراء ملفوفة في قماط واحد)

وما كان اشد عجبى مذكر أيت المترجم الفاضل حرصاً على ترجمة هذه الرسائل إرادة التمرن على اللغة الكبودية وان يهدي الى قومه هدية ذات قيمة علمية . فاشبهت حالته حالتي من هذا القبيل .

ولما زار المشرق الفاضل (ماسينيون) هذا البلد منذ بضعة اشهر أرسته الاقط وسألته عن مترجمها (أديمار) فقال انه من معارفه وقد كان والياً لفرنسا في (كبوديا) وهو ثقة فيما يقوله عن تاريخ هذه البلاد ولغتها ونقائدها سكانها .

و (كبوديا) احدي ممالك الهند الصينية الداخلة حيز حماية فرنسا . وسكانها يشبهون اهل الصين في ملابسهم وعاداتهم واطوار اجتماعهم . ولغتهم الكبودية فرع من اللغة السنسكريتية لغة الهندو المقدسة . وهم يدينون بالبوذية التي من اكبر اركانها عقيدة (التناسخ) .

وهذه العقيدة هي التي يدور عليها محور الكلام في هذه الرسائل الثلاث التي ظفرنا بها عرضاً وتسميها (لقط العلم) . وليس في هذه الرسائل ولا في مقدمة مترجمها ما يدل على الزمن الذي ألفت فيه . لكن يظهر من موضوعها واسلوب كتابتها انها قديمة العهد جداً قد لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة .

ومن اذعن نظره فيها أدرك لاول وهلة ان مؤلفها لم يحاول ان يقرر عقيدة التناسخ من حيث هي هي وانما اراد -ض قومه على ممارسة الخير والفضيلة واجتناب الشر والرزيلة متوسلاً الى غرضه بحكايات ووقائع جرت بين ملوكهم وكننتهم الاقدمين مفرغاً ذلك في قالب قصصي . بلذ القارئ وبلقي في نفسه العجب من هذه العقيدة الغريبة في اطوارها واطوار المعتقدين بها .

و (التناسخ) في اللغة مشتق من (النسخ) وهو و (المنسخ) في اصل معنهما واحد اعني النقل والتحويل . ثم شاغ استعمال (النسخ) في تحويل الشيء الى مثله . ومنه قولهم (نسخ الكتاب) اذا نقل عنه مثله الى صحيفة اخرى . و (ابلاه تناسخ الملوك) اي أفناه وغيره تحول الليل والنهار وانتقال احدهما مكان الآخر . اما (المنسخ) بالميم فقد غالب استعماله في تحويل الشيء الى ما هو اقبح منه فيقال (فلان ما سخ لا ناسخ) و (ما نسخ الكتاب بل مسخه) و (مسخه الله قردا)

والتناسخ بمعنى العقيدة المعروفة هو من النسخ - في اصل معناه اللغوي لان القائلين بها يزعمون ان النفس الناطقة تنتقل بعد الموت من جسدها الى جسد آخر ارقى منه فيكون هذا النقل جزاءً للفضيلة أو أدنى منه فيكون نقلها اذذاك قصاصاً على الرذيلة . فالاجساد كالتحصان والارواح تتسربل منها قيصاً بعد قيص . ومن هنا جاءت تسمية مذهب التناسخ بالنقصان ايضاً .

و (التناسخية) لا يقصرون النقصان على اجساد الحيوانات فحسب . وانما هم يذهبون الى ان النفوس في ترقبها قد تنقص هياكل الملائكة النورانية . وفي تدانيها قد تنقص اجسام النباتات او الجمادات الظلمانية . واذا فارقت الجسد لاول مرة لا تعود اليه الا بعد (٣٠٠٠) سنة وقال افلاطون (١٠٠٠٠) سنة ثم تعود الى مصدرها الاول .

وهذا المذهب قديم جداً في البشر . واشهر من دان به من الامم القديمة الهنود . وقال هيرودثس ان المصريين هم اول من علم به . ولما جاء فيثاغورس الى مصر في القرن السادس قبل المسيح كي يتلقى الحكمة عن كهنتها اخذ عنهم هذه العقيدة ورجع بها الى قومه فنشرها بينهم .

ومن اشهر انصارها بين علماء اوربا المتأخرين الفيلسوفان الفرنسيان فوريه (Fourier) المتوفي سنة (١٨٣٧) و بوجنارانيود (Jean Reynaud) المتوفي سنة (١٨٦٣) .

وقال ابو القاسم البلخي ان التناسخية لم يقولوا بعقيدتهم هذه الا لسارأوا الاطفال والبهائم يتألمون وهم لم يجنوا ذنباً يستحقون به من خالقهم ذلك فهم اذن انما يعاقبون على ذنوب سلفت منهم في بعض ادوار حياتهم الماضية .
وبين عقيدة التناسخ وبين عقائد (الحلول) و (تحريم اكل اللحوم) و (انكار المعاد الجسماني) - نسب وعلاقة . وكل ذلك ناشئ عن اصل واحد وهو القول بقديم النفس الناطقة .

ولم يخل الاسلام من فرق تقول بهذا المذهب . وقد استدلوا عليه من القرآني بآية (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير يحتاجه الا امم امثالكم) ففهموا من كلمة

أمثالكم ان لهذه الدواب والطيور ارواحاً بشرية انتقاة اليها من البشر وهذا هو التناسخ .
مع ان المراد من الآية : ان هذه المخلوقات مماثلة لنا في خضوعها للنواميس الكونية نشوء
وحياة ومماتاً فهي لا تتعدى هذه النواميس كما لا تتعدها نحن معشر البشر . وقد انشدوا
لواحد من هؤلاء التناسخية المنتسبين الى الاسلام .

(اعجبي أمنا لصرف الليالي جمعت اختنا سكينة فاره)

(فاز جرى هذه السنائير عنها ودعيها وما تضم الغراره)

و (الغراره) الجوائق يوضع فيه الزاد والطعام . وقال آخر منهم :

(تبارك الله كاشف الحزن فقد أرانا عجائب الزمن)

(حمار شيبان شيخ بلدنا صير جارنا ابو سكن)

(بُدِّل من مشيه بجلته مشيه في الحزام والرهن)

يقول ان جاره (ابا سكن) بعد ان كان يمشي في حلة من اللبوس الفاخر مسخ الى
حمار ثم ملكه شيخ البلد المسمي (شيبان) وصار يمشي تحته في الحزام والرهن . ولا يعلم
الا الله ما ذا كان ذنب المسكين (ابي سكن) حتى ابني بهذا النوع المضحك من العقاب .
وحدثني ثقة فاضل عن واحد يعرفه من اهل بلده وكان من الباطل (بضم تين اي الفارين
من الجيش) فلجأ الي بعض كروم العنب مختبئاً متوارياً عن العيون . وكان صاحب هذا
الكروم لناسخياً . فاقاه ناطوراً على الكروم يجرسه . ولكن الرجل لم يفعل وجعل يسرق
ويبيع العنب من غير علم الكروم . ولما سأله هذا عن العنب واين يذهب ؟ قال لا اعلم
سوى ان طائفة من بنات آوى تأتي ليلاً وتأكل من العنب أكلاً زريعاً ولما طاردتها
اعتبرني قائدها وخاطبني بكل جرأة قائلاً « وما يعنيك انت من هذا الامر ؟ هذا
الكروم انا كنت صاحبه . وصاحبه اليوم ابني فلما سمعت منه هذا القول تركته ولم اعد
اتعرض له بسوء » . قال فلما سمع مني الكروم ذلك اخذ بيكي ويقول : دعه يأكل نعم
هو ابي هو ابي .

وحدثني ايضا بعض الاشراف من نزلاء دمشق عن الشيخ احمد الكامل المراكشي
الذي وفد على هذا البلد منذيف واربعين سنة وكان ضريراً شديداً الذكاء سريع الحفظ
واسع الاطلاع عجيب النادرة فاحتفل به علماء الشام وأعجبوا بعلمه الجم وذكاءه الغريب . قال :

وكان معه تابع بخدمة حسن السميت . كثير الصمت . فقيل للشيخ من هذا ؟ قال : هو ابو هريرة المحدث . وكان الكاملي هذا يروي عن نفسه انه كان في بلد كذا سنة كذا ثم مات فانتقلت روحه الي شخص آخر ثم الي ثالث وهكذا نحو سبعين مرة وهو يشعر بها كلها ويتذكرها .

وروى الامام ابو الفرج بن الجوزي في كتاب (تلبيس ابليس ^(١)) قال : كان يخضر معنا في بغداد شيخ للامامية يعرف بابي بكر التلاّس . فحدثنا انه دخل على بعض من كان يعرفه بالتشيع ثم جعل يقول بمذهب اهل التناسخ . قال فوجدته وبين يديه قطة سوداء تموّ وهو يمسخ ظهرها ورأسها ويحك بين عينها فتد معان . كما جرت عادت السنانير . واخذ هو يبكي بكاءً شديداً . فقلت له وما يبكيك ؟ قال ويحك ! هي امي ولا شك . اما تراها تبكي كلما مسحتها . وانما بكت حسرة وشفقة علي منذرأني . وجعل يخاطبها خطاب من عنده انما تعقل عنه ما يقول . ثم اخذت المرة تموّ قليلا قليلا . فقلت له : أي تفهم منك ما تخاطبها به ؟ قال نعم . فقلت له أففهم انت عنها صياحها ؟ قال لا . قلت اذن انت الممسوخ وهي الانسان . ثم تركته وسألت الله العافية اه

وما جاء في هذه الحكايات والشعرين السابقين المنسوبين الي تالاسخية العصور الاسلامية - يوشك ان يكون ترجمة او تلخيصاً لما يرويه تالاسخية المنوود الاقدمين في تعاليمهم وتعاليمهم حسبما نسجعه ايها القاري في الرسائل الثلاث التي ضاق عنها هذا العدد وموعدا بها العدد الآتي

المغربي

العدد وموعدا بها العدد الآتي



(١) هذا الكتاب لم يطبع بعد . ونسخه قليلة جداً . عرفت منها ثلاثة او اربعة . عندي منها واحدة . وهو من خيرة كتب السنة . ومن احسن ما كتبه علماؤنا في نقد ارباب الاهواء والبدع . وقد اسهب القول خاصة في نقد احوال غلاة الصوفية . وربما أتينا على وصف الكتاب وافتحسنا فصلاً منه في عدد آخر من هذه المحلّة .